

التناسب والصناعة الشعرية عند حازم القرطاجني

Proportion and poetic industry according to Hazem Al-Qartajani

نادية خميس

ليلى بن زرطيجة*

جامعة باتنة 1

جامعة باتنة 1

مخبر أبحاث في التراث الفكري والأدبي بالجزائر

nadia.khemis@univ-batna.dz

leila.benzertiha@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2024-04-29

تاريخ الإرسال: 2024-01-09

ملخص:

يعد كتاب حازم القرطاجني من أهم مصادر التراث النقدي والبلاغي وخير مظهر للتمازج المثمر بين الثقافة العربية والفلسفية، تناول فيه الصناعة الشعرية من منطلق التناسب الذي عدّه تقنية جمالية في العمل الشعري فما هو التناسب؟ وما هي مستوياته؟ أين تكمن أهميته في تمام الصناعة الشعرية؟ هل له قاعدة في تراثنا العربي أم هو وافد من الثقافة الفلسفية اليونانية؟ كيف كان تأثير هذه الظاهرة على النص بصفة عامة وعلى المتلقي بصفة خاصة؟ الكلمات المفتاحية: تناسب، فكر بلاغي، صناعة شعرية، حازم القرطاجني.

Abstract:

Hazem Al-Qartajani's book is considered one of the most important sources of the critical and rhetorical heritage and the best manifestation of the fruitful blend between arabic and philosophical culture. In it, he dealt with the poetic industry from the standpoint of proportionality, which he considered to be an aesthetic technique in poetic work. So what is proportionality? What are its levels? where does its importance lie in the entire poetic industry? Does it have a basis in our arab heritage or does it come from Greek philosophical culture? How did this phenomenon affect the text in general and the recipient in particular?

Keywords: proportion, rhetorical thought, poetic industry, Hazem Al-Qartajani.

عُرف حازم القرطاجني كناقِد وبلاغي في القرن السابع الهجري بفضل كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء الذي عبّر فيه عن أهم القضايا التي مر بها النقد في مراحلهِ المختلفة، مستندا على التراث العربي من جهة وعلى المقولات الفلسفية من جهة أخرى، فاصطبغ كتابه بصبغة مختلفة عما كتب سابقا، فقد وظف المصطلحات الفلسفية في أثناء حديثه عن أهم القضايا منها المحاكاة والتخييل والتناسب وغيرها، وهذا الأخير- التناسب- الذي عدّه بمثابة تقنية جمالية في العمل الشعري، فقد ركز عليه في علاجه لأهم القضايا وأكد على أنّ البلاغة بوصفها العلم الكلي تستند على التناسب الذي عده ركنا من أركان تمام الصناعة الشعرية، فكان تناوله لمستويات التناسب تعبيراً منه على مقولة التركيب من بناء الحروف حتى تصير ألفاظا تبنى بها عبارات ليصل المعنى للمتلقى بأسلوب يترك بالغ الأثر فيه فيبيدي بموجبه رد فعل بالرفض أو القبول.

ولعلّ من أهم الأهداف الأساسية لدراسة هذا الموضوع هو تبيان دور التناسب ومستوياته وعظيم تأثيره على الصناعة الشعرية وأهمية التراث من جهة والفلسفة من جهة أخرى في تشكّل هذه الظاهرة، ودوره في الترابط النصي ببناء لغة جمالية تعطي النص قيمته البليغة التي تشد المتلقي بموجها للتأثر به، فجاءت هذه الدراسة انطلاقاً من تساؤلات لعل من أهمها: ما هو التناسب؟ وما هي مستوياته؟ كيف أثر التناسب في الترابط النصي، وأين تجلّت تبعاته على اللغة الجمالية للمتلقى؟

1- التناسب (بحث في المفهوم):

بالرجوع إلى المعاجم فيما يخص لفظة التناسب نجد في معجم لسان العرب لابن منظور "النَّسَبُ: نَسَبُ القَرَابَاتِ، وهو واحدُ الأنسابِ، والنَّسَبُ: القَرابة. وقيل النَّسَبَةُ مصدرُ الانتسابِ، والنَّسَبَةُ: الاسمُ. وفلانٌ يناسب فلاناً: فهو نسيبه أي قريبه. وتقول ليس بينهما مُناسبة أي مشكلة"¹ فحملت لفظة التناسب معنى القَرابة والمشكلة. وترد هذه اللفظة في أساس البلاغة للزمخشري بمعنى "نسب: له نسب في بني فلان وتفاخروا بالأنساب وفلان حسيب نسيب ذو حسب ونسب وهو نسيبي وهم أنسابي وقد

¹ ابن منظور، (2013)، لسان العرب، ج 08، دط، دار الحديث، القاهرة، ص 530-531.

ناسبوني¹ فعبرت عن القرابة والمشاكلة والرفعة، وإذا طبقنا هذا المعنى على النص فيصبح التناسب علاقة بين شيئين بينهما صفات مشتركة متصلة منسجمة معا واحدة منهما مكملة للأخرى إذا اختلت إحداهما فسد المعنى ونقص، وهذا الارتباط يولد انسجاما بين أجزاء العمل الأدبي فيصير الكلام حسنا بليغا متين التركيب بعيدا عن الاختلال. اختصر عبد الملك مرتاض معنى التناسب في اعتباره "كل ما استوى من المقومات الظاهرة المعنى والباطنة والمستجدة في التعبير أو الصياغة الواردة في نسج الكلام، مشابهة أو مماثلة أو متقاربة على نحو ما، مورفولوجيا أو نحويا أو إيقاعيا أو تركيبيا أو معنويا عبر شبكة من الاستبدالات والتباينات بحكم علاقة سياقية تحدد موقع الدلالة"²، فالتناسب بهذه الصفة يكون من اللفظ إلى تمام المعنى مع مراعاة التركيب والدلالة ونسج الكلام ومدى إصابته المعنى المراد التعبير عنه، أي ما بين مشاكلة ومماثلة وارتباط من أصغر وحدة إلى تمام المعنى.

تحدث حازم القرطاجني عن التناسب قائلا: "إنما الوضع المؤثر هو وضع الشيء الموضع اللائق به، وذلك يكون بالتوافق بين الألفاظ والمعاني والأغراض من جهة ما يكن بعضها في موضعه من الكلام متعلقا ومقترنا بما يجانسه ويناسبه ويلائمه من ذلك. والوضع الذي لا يؤثر يكون بالتباين بين الألفاظ والمعاني والأغراض من جهة ما يكون بعضها في موضعه من الكلام متعلقا ومقترنا بما يناقضه ويدافعه وينافره"³، فثنائية التناسب عند حازم تبدأ من تأليف الكلمات والألفاظ والمعاني وارتباط بعضها ببعض، وتناسبا مع الأغراض لكي يحصل لها التأثير المرغوب، وهنا نلمح تناغما واضحا تتناسب فيه أقطاب ثلاثة: الألفاظ والمعاني والأغراض.

2- التناسب والترابط النصي :

¹ الزمخشري، (1998)، أساس البلاغة، ت: محمد باسل العيون السود، ج2، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان-، ص265.

² مرتاض عبد الملك، (دت)، نظام الخطاب القرآني، (تحليل سيميائي مركب لسورة الرحمن)، د، دار هومة، الجزائر-بوزريعة-، ص157.

³ أبو الحسن حازم القرطاجني، (2008)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت: محمد الحبيب بن الخوجة، ط03، الدار العربية للكتاب، تونس، ص135.

إنَّ الناظر والمتمعن في كتاب حازم يجد فيه اهتماما بالغاً بمبدأ التناسب الذي عدّه سمة جمالية يجب أن تتوفر في النص، وجعل فيه مستويات تختلف حسب منتج النص والنص في حد ذاته ومستقبله، انطلاقاً من أصغر وحدة أو مستوى الذي هو الحروف إلى تمام العبارة أو المعنى، ووضع لكل قسم منها صفات وشروطاً يجب أن تتوفر من أجل التأثير الحسن، انطلاقاً من قائل الشعر أو المنتج الذي يجب أن يكون بليغاً فصيحاً متشبعاً من الثقافة العربية إلى متلقٍ يبدي رد فعل على النص بالاستجابة مع نص منسجم مترابط متناسب تتوفر فيه كل مقومات الشعرية، فركز حازم على مبدأ التواصل بين المتكلم والمخاطب والسياق فالمعنى يخرج من متكلم محدد إلى مخاطب محدد في سياق لتحقيق غرض تواصل.

بتحديد حازم للطرق التي تؤدي إلى التناسب أكد أنه لا يمكن الوصول إليه " بشيء من علوم اللسان إلاّ بالعلم الكلي في ذلك وهو علم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيله كلياته ضروب التناسب والوضع"¹، فقسم التناسب إلى مستويات أولها: التناسب على مستوى الحروف: فيقول: "والهدي إلى العبارات الحسنة يكون بأن يكون للشاعر قوّة يستولي فكره بها على جميع الجهات التي يستكمل حسن الكلام منها... وتلك الجهات هي اختيار المواد اللفظية أولاً من جهة ما تحسن في ملافظ حروفها وانتظامها وصيغها ومقاديرها واجتناب ما يقبح في ذلك"²، وهذا المتعارف عليه في كتابات العرب وتركيزهم على الفصاحة باختيار المواد اللفظية من جهة انتظام الحروف وعدم تنافرها، ليصل إلى الألفاظ التي أكد على ضرورة

" ألاّ تتفاوت الكلم المؤتلفة في مقدار الاستعمال فتكون الواحدة في نهاية الابتدال والأخرى في نهاية الحوشيّة وقلة الاستعمال، ومنها أن تتناسب بعض صفاتها..."³، فارتفع مستوى التناسب إلى قطب الألفاظ التي أكد على أن يكون استعمالها بعيداً عن الابتدال جارياً على طريقة العرب ينتقي فيها الشاعر الألفاظ على قدر الاستعمال مجانية للغربة التي يمكن أن تجعل المتلقي يقف محتاراً بعدم فهمها.

¹ أبو الحسن حازم القرطاجني، (2008)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص202.

² المصدر نفسه، ص198.

³ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

فمراعاة التناسب على مستوى العبارة على حدّ قوله يكون" بالتسهيل في العبارات وترك التكلف. والتسهيل يكون بأن تكون الكلم غير متوعّرة الملائظ والنقل من بعضها إلى بعض وأن يكون اللفظ طبقاً للمعنى تابعا له جارية العبارة من جميع أنحاءها على أوضح مناهج البيان والفصاحة...¹، فقد ركز حازم في أثناء ترتيبه لهذه المستويات الثلاثة على مقولة العلاقة والتركيب والترتيب من بناء الحروف إلى أن تصير ألفاظا تبني بها عبارات لإيصال المعنى المراد تحقيقه وفق أسلوب بليغ، ومن أجل بلوغ أقصى درجات الجودة في القول الشعري فلا بد من تناسب الحروف والألفاظ والعبارات بعيدا عن التكلف والمبالغة جارية على مناهج الفصاحة والبلاغة، وهنا كانت الانطلاقة لاعتبار التناسب أساسا لكل نظام وبناء شعري.

كان تركيز حازم على المستويات الثلاثة نظرا لما آل إليه الشعر في عصره من ظهور العجمة والبعد عن أصول الشعر، فلم يستطع أن يقف موقف المتفرج فكانت محاولته في بناء صنعة الشعر بكتابه المنهاج لقوله: "إنما احتجت إلى هذا لأنّ الطباع منذ اختلت...والعناية بهذه الصناعة منذ قلت، وتحسين كلّ من المدّعين صناعة الشعر ظلّته بطبعه فهي تستجيد الغثّ وتستغثّ الجيدّ من الكلام ما لم تقمع بردها إلى اعتبار الكلام بالقوانين البلاغية..²، فعمد إلى توضيح صناعة الشعر الذي عدّه خلقا فنيا يُعبر به عن ما يختلج النفس وفق قواعد أساسها البلاغة التي سماها " العلم الكلي" يندرج تحته التناسب كمعيار وقاعدة لبناء الشعر، فاستيعابه للموروث البلاغي والنقدي ساهم بشكل كبير في إنتاج مشروع جديد لإصلاح وضعه الثقافي.

أولى حازم أهمية للشاعر وذكر أهم الشروط التي تؤثر فيه وتساعده على تكوين شخصيته المبدعة(المهينات والأدوات والبواعث) ومنها: البيئة التي جعلها عاملا مهما تكسبه اللغة التي يقتدر بها على قول الكلام الفصيح البليغ إضافة إلى الاحتكاك بالفصحاء، فوصول الشاعر إلى الترابط النصي الذي أساسه التناسب يتجسد في امتلاكه ثلاث قوى تساعد على قول الشعروهي: الحافظة والمنازة والصناعة، فالحافظة تحافظ على الأفكار منتظمة وتساعد على استدعائها عند الحاجة إليها، أما المنازة فمهمتها التمييز

¹ أبو الحسن حازم القرطاجي، (2008)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 199-200.

² المصدر نفسه، ص 24.

بين ما يلائم وما لا يلائم، والصناعة تتولى ضم الأجزاء بعضها ببعض ليصل الشاعر إلى تمام الصناعة الشعرية.

هذه القوى الثلاث تشبه إلى حد كبير ما نجده عند ديك * في أثناء تحدّثه عن الكفاءة التداولية وتتجسد عنده في خمس قوى: اللغوية- المنطقية- المعرفية- الإدراكية- الاجتماعية، فهذه القوى تندرج تحت ما سماه حازم الطبع الجيد ويتضح من ترتيباته لهذه القوى أنّ القوتين الحافظة والمائزة "تتعلقان بمرحلة التفكير في العمل الشعري واختماره في النفس. أما الثالثة وهي القوى الصناعة فمسألة عملية تتعلق بالممارسة الفعلية للإنشاء والإبداع ومعاونة التشكيل الفعلي والإنجاز النهائي للقصيدة"¹، فحازم اهتم بمنتج الخطاب من الكتابة وفي أثناء الإنتاج وحتى الإخراج، فما ذهب إليه لا يختلف عن مسارد ديك فالمسميات مختلفة ولكن المحتوى والنتيجة واحدة وهي أن يكون لمنتج الخطاب الكفاءات اللازمة لإنتاج خطابه بشكل واضح للتأثير الجيد في المتلقي.

فمنهج حازم على حدّ قول إحسان عباس " قائم على الانتقاء والتنسيق والقياس فهو قد انتقى من نقاد الفلاسفة تعريفه لماهية الشعر وعلاقته بحركات النفس، ومن الجاحظ القول بأثر البيئة والعرق (...) وأما حديثه عن القوى الحافظة والمائزة والصناعة فإنّها قياس على ما وجده عند الفلاسفة وخاصة (ابن سينا)²، فحازم استلهم من مجهودات المتقدمين والفلاسفة التي وصلت إليه عن طريق الشراح لتقديم صيغة جديدة لنظرية الشعر عند العرب.

* فان ديك، ولد سنة 1943 وهو الآن يشغل أستاذا "لدراسات الخطاب" في جامعة أمستردام، حصل على شهادات عليا في اللغة الفرنسية والآداب من الجامعة الحرة بأمستردام والدكتوراه في اللسانيات، كانت أبحاثه الأولى تدور حول الدراسة اللسانية للآداب ثم ما لبث أن تطور إلى تداولية الخطاب. ينظر كتاب: دايك فان(2000)، النص والسياق- استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، دط، إفريقيا الشرق، المغرب، ص 10-11.

¹ عبد الله الوهبي فاطمة، (2002)، نظرية المعنى عند حازم، ط01، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ص 214.

² عباس إحسان، (1971)، تاريخ النقد الأدبي عند العرب- نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن

الثامن الهجري، ط01، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ص 545.

فمستويات التناسب (حروف، ألفاظ، معان) فتحت المجال لبروز قضية اللفظ والمعنى حيث اعتبر العلاقة بينهما علاقة تلازم "إنما الوضع المؤثر وضع الشيء الموضع اللائق به، وذلك يكون بالتوافق بين الألفاظ والمعاني والأغراض من جهة ما يكن بعضها في موضعه من الكلام متعلقاً ومقترناً بما يجانسه ويناسبه ويلائمه في ذلك. والوضع الذي لا يؤثر يكون بالتباين بين الألفاظ والمعاني والأغراض"¹، فهذه الألفاظ والمعاني أضاف إليها حازم عنصر الأغراض واعتبر أن ما يربط بين الثالث (لفظ، معنى، أغراض) هي علاقة تألف وتناسب تمنح القول جانباً التأثيري.

أطال حازم الحديث في موضوع المعاني حيث ميز بين المعاني الأولى والأصيل والدخيل وعرفها قائلاً: "إنَّ المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكل شيء له وجود خارج الذهن فإنَّه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه، فإذا عبّر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم"²، فالمتعمّن في القول يرى اختلافاً في لغة حازم وتعريفه للمعنى تختلف عن سابقه وهنا نلمح تأثيراً واضحاً منه بالفلسفة فاعتبر المعاني صوراً موجودة في الأذهان تكون عن أشياء خارجية مدركة موجودة في عالمنا الحسي فإذا تجسدت الصورة الذهنية المدركة يأتي اللفظ فيعبر عن تلك المعاني لإيصالها إلى المتلقي.

فكان تقسيمه للمعاني لاعتبارات منها قوله: "أعرق المعاني في الصناعة الشعرية ما اشتدت علقته بأغراض الإنسان وكانت دواعي أرائه متوفرة عليه، وكانت نفوس الخاصة والعامة قد اشتركت في الفطرة إلى الميل إليها أو النفور عنها"³، وعليه فإنَّ أعرق المعاني هو ما وافق الأغراض الإنسانية وما اشتدت علقته النفس به ويستوقفنا قول الجاحظ: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي (...) وإنَّما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء وفي صحة الطبع"⁴، فالشروط التي وضعها أقرب إلى

¹ أبو الحسن حازم القرطاجي، (2008)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 135.

² المصدر نفسه، ص 17.

³ المصدر نفسه، ص 19.

⁴ الجاحظ، (دت) الحيوان، ج 03، دط، دار الجيل، بيروت، ص، 131-132.

ما ركز عليه حازم كشرط للصناعة الشعرية فقال: "فالدخيل لا يؤتلف منه كلام عال في البلاغة أصلاً إذ من شروط البلاغة والفصاحة حسن الموقع من نفوس الجمهور، وذلك غير موجود في هذا الصنف من المعاني وأيضاً فإنّه لا يقع في أغراض الشعر المألوفة إلاّ ثانياً وتابعاً"¹، فلغة الشعر تفرض إخراج الدخيل عنها مما لا تتوفر فيه البلاغة ولا يترك أثراً في المتلقي إضافة إلى أنّها تقع في أغراض الشعر تابعة وهي ما سماها حازم المتصورات الدخيلة التي تنتج عن تعلم وتكسب كالأغراض التي نجدها في العلوم والصناعات وهي أبعد ما يمكن عن لغة الشعر ومن أقبح ما يستخدم فيه.

فلكي تتناسب المعاني يجب أن "يوجد لكلّ معنى من المعاني التي ذكرتها معنى أو معان تناسبه وتقاربه، ويوجد له أيضاً معنى أو معان تضاده وتخالفه، وكذلك يوجد لمضاده في أكثر الأمر معنى أو معان تناسبه، ومن المتناسبات ما يكون تناسبه بتجاور الشئيين واصطحابهما واتّفاق موقعهما من النفس، ومنه ما تكون المناسبة باشتراك الشئيين في كفيّة ولا يشترط فيه التجاوز ولا الاتفاق في الموقع من هوى النفس. وما جعل فيه أحد المتناسبين على هذه الصفة مثلاً للآخر ومحاكياً له فهو تشبيه"²، فتناسب المعاني يفرض بالضرورة وجود علاقة بينهما من حيث تجاورهما واتفاقهما وفق حالات: الموقع من النفس، والاشتراك في الكيفية، وأن يكون أحدهما مثلاً للآخر ومحاكياً له وهو ما سماه تشبيهاً، وعلى هذا الأساس فصل وجوه التقارب والتماثل في الأوجه التالية:

- 1) إذا اقترن معنى بمعنى في موقع وحيّز واحد فممنه اقتران التماثل.
- 2) إذا اقترن المعنى بما يناسبه فهو اقتران مناسبة.
- 3) وإذا اقترن المعنى بمضاده فيكون منه المطابقة أو المقابلة.
- 4) وإذا اقترن الشئ بما يناسب مضاده فيكون اقتران مخالفة.
- 5) وإذا اقترن الشئ بما يشابهه ويستعار اسم أحدهما للآخر فيكون هذا من تشافع الحقيقة والمجاز"³.

¹ أبو الحسن حازم القرطاجني، (2008)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 23.

² المصدر نفسه، ص 13-14.

³ عبد الله الوهبي فاطمة، (2002)، نظرية المعنى عند حازم، ص 136-137.

فثنائية التناسب هنا عند حازم لم تقف عند معنى الاتفاق والمقاربة فقط وإنما تجاوزته إلى التضاد والتخالف مع وجود المضاد لمعنى يناسبه وهو ما سماه المخالفة، فجعل التضاد سمة من سمات التناسب، فالاقترانات بين المعاني ولدت سلسلة من العلاقات ساهمت بشكل كبير في إبراز وتوالد المعاني مبرزة مزيدا من الخواص والسمات التي يمكن أن تمنح لها في إطار هذه التوالدات والاقترانات والاختلافات، فتظهر "مقولة العلاقة والنسبة كمقولة محورية عنده، فقد أثرت في رؤيته للمعنى والشعرية، ووجهت نظره للمعنى كجزء من التصورات القبلية وكآلية تنتج المعرفة وتؤثر على إنتاج المعنى وتشكل القول الشعري"¹.

وهذه الصورة جعل التناسب شرطا للشعرية ورأى أن "التأليف من المتناسبات له حلاوة في المسموع، وما ائتلف من غير المتناسبات والمتماثلات فغير مستحلى ولا مستطاب ويجب أن لا يقال في ما ائتلف على ذلك النحو شعروا إن كان له نظام الشعر أن يكون مستطابا"²، فتمائل الأجزاء مما تستسيغه الأذن ويترك أثرا لدى المتلقي الذي بموجبه يقدم رد فعل يستمتع بموجبه بالمحتوى المقدم، فمعرفة صناعة الشعر تتوقف على معرفة جهات التناسب وعلاقتها ببعضها بعضا.

3- اللغة الجمالية عند المتلقي:

نال المتلقي الحظ الوافر من اهتمامات حازم فقد جعل رد الفعل التي يقوم بها سمة من سمات نجاح الشعر، فكما كان الاهتمام قبلا منصباً على النص ومنتجاً أصبح المتلقي ينافس للحصول على مكانته ضمن محور الصناعة الشعرية.

لقد كان الشعر قائما على قوانين يتخذها الشاعر كنبراس لكتابة شعره يُجوده ويسير وفق بلاغة العرب وفصاحتهم مبني على ثنائية الوزن والقافية، ولكن كان لحازم رأي آخر فبالإضافة لهذه الثنائية أضاف ما يسمى بعنصر التأثير الذي نجده عند المتلقي فهو لم ينف أن الشعر كلام موزون مقفى، وإنما تجاوز الجانب الشكلي إلى البحث عن جوهر الشعر فقال: "الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه

¹ المرجع السابق، ص 30.

² أبو الحسن حازم القرطاجني، (2008)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 240.

إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمّن من حسن تخيل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصوّرة بحسن هيئة تأليف الكلام، أو قوّة صدقه أو قوّة شهرته، أو بمجموع ذلك، وكلّ ذلك يتأكّد بما يقترن به من إغراب. فإنّ الاستغراب والتعجّب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثيرها¹.

فحازم يتفق مع من سبقه في جزئية من حدّ الشعر بأنّه كلام موزون مقفى ولكن أضاف له سمة خاصة هي ما يعرف بالتأثير وما يترتب عنه من توليد ردة فعل لدى المتلقي بالكره أو التحبيب، طلب الشيء أو التخلي عنه، وذلك بفضل ما يمتلكه هذا الشعر من حسن تخيل ومحاكاة، وقوة شهرة وصدق، فاعتبر جابر عصفور أنّ الشعر عند حازم ما هو إلّا "إثارة تخيلية لانفعالات المتلقي، يقصد بها دفعه إلى اتخاذ وقفة سلوكية خاصة تؤدي به إلى فعل الشيء، أو طلبه، أو اعتقاده. أو التخلي عن فعله"²، فعندما يثار المتلقي تنشيط قواه التخيلية مما يؤدي إلى القيام برد فعل بطلب هذا الشيء أو التخلي عنه هنا يتكشف الجانب الإبداعي عند حازم الذي يقرن الشعر بالتعجب والاستغراب، فيكون هذا الأخير-الشعر- قائماً على وزن وقافية لهما مهمة الكره والتحبيب إلى محاكاة كأداة تواصلية بين النص والقارئ، فالتخيل للشاعر يرسم به صورة للتعبير عن غرض والتناسب للنص والتخيل دور المتلقي، فتكون قوانين الصناعة الشعرية تخيلاً ومحاكاة وتخيلاً، وتعجيباً واستغراباً، وتناسباً... وغيرها.

فأحسن مواقع التخيل التي بموجها يثار المتلقي وببدي ردة فعل هي ما تتناسب معانها مع الأغراض " فإنّ مناسبة المعنى للحال التي فيها القول وشدة التباسه بها يعاون التخيل على ما يراد من تأثر النفس لمقتضاه"³، فالنفس ميالة للشيء المتناسب الذي يعطي أحسن صورة للنص فيجذب اهتمام المتلقي بما فيه من غرابة وتعجيب، فالتعجب يكون باستعمال الشاعر لمعان نادرة الحصول من شأنها أن تبث الاستغراب في عقل المتلقي فيعمل على تخيلها وهذا ما سماه حازم بعنصر التأثير، فالجانب الجمالي عند

¹ أبو الحسن حازم القرطاجني، (2008)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 63.

² عصفور جابر، (1992)، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط03، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص298.

³ أبو الحسن حازم القرطاجني، (2008)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص80.

المتلقي يظهر في ردة الفعل التي يقدمها اتجاه نص يسعى فيه الشاعر لتقديمه متناسبا تظهر فيه المحاكاة والتخييل والاستغراب والتعجيب كآليات جمالية.

الخاتمة:

توصل البحث في ظاهرة التناسب والصناعة الشعرية عند حازم القرطاجني إلى عدة نتائج لعلّ من أهمها:

- أنّ التناسب كان ولا يزال سمة من سمات الكتابة الأدبية والشعرية، فهو بمثابة تقنية جمالية عند حازم تمنح النص الشعري جانبه التأثيري، قائم على الترابط بين الشاعر والنص والمتلقي.
- البحث في مفهومه الدال على القرابة والمشكلة والرفعة ما هو إلاّ دليل على الترابط النصي الذي يكون من اللفظ إلى تمام المعنى مع مراعاة التركيب والدلالة والسياق.
- اعتبار البلاغة العلم الكلي الذي تندرج تحته ضروب الصناعة وأنّ أهميتها في الشعر تكون في شخصية الشاعر الذي يجب أن يكون فصيحاً وبلغياً متشبعاً من الثقافة العربية إلى نص متناسق متناسب تتوفر فيه كل مقومات الشعرية ومتلق يبدى رد فعل لهذا المحتوى.
- تظهر مستويات التناسب في ثلاث مراحل من أصغروحدة التي هي الحروف إلى الألفاظ فالمعاني، وهي قائمة على مقولة العلاقة والترتيب، فلبلوغ أقصى درجات البلاغة فلا بد أن تتناسب هذه المستويات وتكون بعيدة عن التكلف والمبالغة جارية على مناهج الفصاحة والبلاغة.
- ركز حازم على الشاعر وذكر أهم الشروط التي يجب أن تتوفر فيه انطلاقاً من ثلاث قوى تتمثل في: الحافظة والمائزة والصناعة وهي أقرب ما نجده عند ديك في الجانب التداولي، فيجب لمنهج الخطاب أن تكون له الكفاءات اللازمة لإنتاج خطابه بشكل يؤثر به على المتلقي.
- التركيز على الجانب المنطقي للفلسفة وإظهار البعد التأثيري لها على الفكر النقدي والبلاغي عند حازم وبروز مصطلحات كالتخييل والمحاكاة إضافة إلى ما سماه

بالعنصر التأثيري الذي يخص المتلقي وأن التناسب مثلما نجده في المرادفات موجود كذلك في المضادات.

- مثلما أولى حازم أهمية للشاعر اهتم كذلك بالمتلقي الذي يبدي رد فعل للشعر وما سماه بعنصر التأثير فالشعر عنده قائم على وزن وقافية لهما دور التحبيب والكره ومحاكاة كأداة تواصلية فالتخيل عمل الشاعر والتناسب للنص والتخيل دور المتلقي.

- فتكون قوانين الصناعة الشعرية هي تخيل وتخيل ومحاكاة وتعجيب واستغراب وتناسب... وغيرها، فالتعجيب والاستغراب حركتان للنفس يثيران المتلقي فيتخيل الصورة وهذا ما يعرف بالتأثير، وبعدها يبدي رد الفعل بالكره أو التحبيب.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

- أبو الحسن حازم القرطاجني، (2008)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تر: محمد الحبيب بن الخوجة، ط03، الدار العربية للكتاب، تونس.

المراجع

- ابن منظور، (2013)، لسان العرب، ج08، دط، دار الحديث، القاهرة.
- الجاحظ، (دت) الحيوان، ج03، دط، دار الجيل، بيروت.
- الزمخشري، (1998)، أساس البلاغة، ت: محمد باسل العيون السود، ج02، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.
- عباس إحسان، (1971)، تاريخ النقد الأدبي عند العرب- نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، ط01، دار الثقافة، بيروت-لبنان.
- عبد الله الوهبي فاطمة، (2002)، نظرية المعنى عند حازم، ط01، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب.
- عصفور جابر، (1992)، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط03، المركز الثقافي العربي، بيروت.
- فان دايك (2000)، النص والسياق- استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيبي، دط، إفريقيا الشرق، المغرب.
- مرتاض عبد الملك، (دت)، نظام الخطاب القرآني، (تحليل سيميائي مركب لسورة الرحمن)، دط، دار هومة، الجزائر-بوزريعة.

